مؤتمر الكتاب السنوي بحضور الدكتورة نجاح العطار

الحرب على سورية تجربة كبرى محنة دامية وموجعة تقدم للكاتب موضوعات غنية تتحدى الموهبة

| د. ناديا خوست

اجتماع مؤتمر الكتاب في ظروف الحرب على سورية، بعد التفجيرات في الست زينب وفي حمص، شاهد على صلابة الحياة السورية. أضاف روحا إلى المؤتمر حضور الدكتورة نجاح العطار. ذكّرنا بزمن رحب تلاقى فيه الأمن الغذائي بالأمن الثقافي والأمن الوطني، كان فيه الشعار «الثقافة هي الحاجة العليا للإنسانية»، وكنا نعود من الأمسيات الموسيقية في إيبلا في منتصف الليل عابرين غوطة آمنة!

مسار اتحاد الكتاب

طمأننا الدكتور خلف المفتاح على الثوابت السورية التي عجز الحقد السعودي والعثماني عن اقتلاعها. واستعاد لنا رئيس اتحاد الكتاب ما احتضنته سورية من شواهد حضارية. وبدا أن «التنوير» هو الشعار الذي يرسم نهج الفترة القادمة، بدلاً من الشعارات التفصيلية عن مقاومة الصهيونية وواجبات الكتاب الوطنية. لكننا افتقدنا ما تعودناه في مؤتمرات اتحاد الكتاب السابقة: أن تكون في أيدينا التقارير التي سنناقشها، فالنص هو المعتمد عادة لفحص العمل، واستبعاد الارتجال.

تميز اتحاد الكتاب بتنظيم يؤكد تقاليد مؤسسة ثقافية. فبعد الجزء الاحتفالي يتناول الكتّاب عادة التقرير السنوي الذي يسجل ما أنجز ويقترح خطة العمل. يعرضون آراءهم في المسائل التي تشغل المجتمع والثقافة، يناقشون الوضع السياسي، ويستفيضون في ملاحظاتهم ومقترحاتهم، حاملين واجب الكتاب في رصد الحياة العامة وموقع الكتاب فيها. هكذا عبّرنا في المؤتمرات عن حذرنا من مكافأة الطفيلية التي نهبت القطاع العام باقتصاد السوق، وعن تجاوزات المحافظين على هوية المدينة العربية، وأهمية الآثار والأبنية التاريخية كعمق تاريخي في الصراع العربي الصهيوني، ونبهنا إلى الفساد، وإلى الاختراق الصهيوني وجوائزه وأشخاصه. فصل المؤتمر كتابا التقوا بإسرائيليين أو كتبوا في منحى صهيوني. وصاغ وثيقة الشرف التي تحظر العلاقة بأية مؤسسة إسرائيلية أو صهيونية، وكسب عليها توقيع شخصيات ومنظمات عربية. اخترق الاتحاد حصار العراق فجمع سبعين كاتبا عربيا قدم لهم الرئيس بشار الأسد طائرة خاصة نقلتهم إلى بغداد حيث عقدوا اجتماعهم. وكان اتحاد الكتاب أول منظمة زارت جنوب لبنان بعد تحريره سنة ٢٠٠٠. وخلال الحرب على سورية حمى الاتحاد وحدته، على الرغم من سعي جدي إلى «الانشقاق»، وتلفيق منظمة كتاب مغتربة.

جسد مسار الاتحاد الالتزام بالثقافة الوطنية التي تعادي الصهيونية والتدخل الغربي الاستعماري وتدافع عن حرية الفكر والتنوع تحت سقف الثوابت الوطنية. التزم بقضية فلسطين، وتضامن مع أي عربي مهدد. لذلك يجد من يتصفح دوريات الاتحاد أبحاثاً ومقالات عن الوهابية، وعن صياغة نخبة ثقافية شرق أوسطية، وعن تحضير الحرب على سورية.

المسار اللاحق

هذا النهج، إذاً، وطني منفتح، مهما كانت الكفاءة في التعبير عنه، ومهما كانت عواطفنا الشخصية نحو المشاركين في إدارته. لذلك يبدو لنا أن وضع شعار «التنوير» كأنه عنوان دورة انتخابية، جميل لكنه متسرع. أولاً، لأن اتحاد الكتاب لم يكن أبدا في ظلام يجب أن نخرجه منه إلى التنور. ثانياً، لأن المزاج العام يتوجس من الشعارات الزاهية، بعد حرب قاسية خربت سورية باسم الحرية والديمقراطية. المعيار هو العمل. مثلاً وعد المؤتمر الماضي، في فورة حماسة غنائية، بنشر عشرة كتب عن الحرب. مع أننا نعرف أن ذلك لا يتحقق في ظروف الفراغ الفكري. ثالثاً، يتصل «التنوير» بمرحلة تاريخية حملها متنورون كبار فلاسفة وشعراء، وعبّر عن مجتمع ينتقل من مرحلة إلى أخرى. فهل ينطبق ذلك على الواقع السوري؟

بل تختلف ظروفنا عن المرحلة التاريخية التي استولدت «التنوير». فقد لاحظ الرئيس بشار الأسد، وبين يديه المعلومات الدقيقة الشاملة، أننا نعاني من الفراغ الفكري. لا يعني الفراغ الفكري فقط غياب حمالي مشروع التنوير، بل أيضاً إن المسائل التي يضعها الواقع لا تجد تعبيراً فنياً وفكرياً وموسيقياً وشعرياً عنها! يعني أن أبطال المطارات المحاصرة المحررة، والمقاتلين، والشعب السوري الشجاع الصابر، لا يجد نشيداً ولا أغنية ولا قصة ولا رواية تروي روحه! من الناشط في هذا الفراغ الفكري؟ الفكر التكفيري! الفكر الذي قال الرئيس الأسد إنه لا يهزم بالعمل العسكري فقط، بل بالفكر. فأين الأبحاث التي تواجهه؟ ألا نلاحظ أن السياسي والمواطن يتقدمان اليوم على المثقف؟

يجب أن تناسب الشعارات الحاجات الحقيقية التي تقترحها مرحلة تاريخية. كل مايوضع خارج هذه الحاجات أو بديلاً منها يضيّع الزمن، كما ضيعه من تاه سنوات في موضوعات الحداثة وما بعد الحداثة والبنيوية والتفكيكية وموت المؤلف ونقد النقد. ولنتذكر وصية صهيونية تعترف بأنها تبتكر للشعوب غير اليهودية، الغوييم، موضوعات تشغلها عن المسائل الحقيقية، فإذا اهترأت ابتكرت لها بدائل تهدر الزمن!

نستنتج أن المسألة الأولى التي يفترض أن تشغل الكتاب والمثقفين اليوم هي أولا بحث مشكلة الفراغ الفكري. ما أسبابه؟ كيف الخروج منه؟ ما سبب عزوف الجمهور عن الأمسيات الثقافية والندوات؟ وفي السياق: لماذا لا يرتقي الإنتاج الفكري إلى مستوى الحاجات؟ لماذا ينشغل الكتّاب بموضوعات ملفقة بدلاً من تناول موضوعات الحياة الفوارة التي تقدمها مأساة الحرب على سورية؟ لدينا بنية تحتية ثقافية فكيف نجعلها فاعلة وحيوية؟

الحرب على سورية تجربة كبرى، محنة دامية وموجعة، تقدم للكاتب موضوعات غنية تتحدى الموهبة. لنتذكر أن أدب المقاومة السوفييتية ولد على جمر الحرب العالمية الثانية. من قلب النار كتب سيمونوف «انتظريني وسأعود»، وكتب الشعراء القصائد التي أصبحت أغنيات عامة، واستلهم الروائيون شخصيات رواياتهم التي أصبحت كنوزاً عالمية. ينتظر بعضنا نضج ما يشعر به؟ فليكن! لكن لماذا يكتب الباحث الفرنسي فيرنوشيه عن الوهابية، ويصدر الباحث الفرنسي ايزامبير كتاباً عن العصابات المسلحة الإجرامية في سورية، ويتحدث السياسيون الغربيون عن خطر الوهابية، ويبحث الكونغرس في جلسة استماع، فكر المجموعات الإرهابية الوحشي الذي تنفق عليه السعودية، ولا يتناول باحثون سوريون خطر الوهابية؟ نستنتج أن الشعار المناسب للواقع بدلا من التنوير: كشف الفكر الوهابي! تطابق الفكر التكفيري والفكر الصهيوني! علاقة العولمة الاستعمارية بتأسيس خلافة إسلامية داعشية.. إلخ.

يجب ألا نستخف أبداً بالمنظومات الفكرية! فالمشروع السياسي يسددها في التعمير أو التخريب. لا يزوّد الإرهابيون الذين يفجرون الأضرحة وينهبون الآثار ويذبحون الأطفال بالمال والسلاح السعودي فقط، بل بمنظومة فكرية. أمامنا فيلم موجع يعرض أباً يودع ابنه في سيارة سيفجرها. نرى وجه الطفل الصافي المستسلم للإيمان بأنه يمشي في طريق الجهاد! لا يخطر له بأنه قاتل ومنتحر، ولا يبالي بهول الآلام التي سيسببها! لدينا وقائع أخرى عن إخوة وآباء وأزواج قدموا نساءهم لجهاد النكاح، وشابات غربيات وعربيات التحقن بالمنظمات الإرهابية ليمارسن جهاد النكاح. تربي المنظومة الفكرية الوهابية مجرمين، ومنحطين، ومجانين. لذلك يشعر كثير من المفكرين والسياسيين الغربيين بخطرها. يزيد الحذر والتوجس أنها تعمل في ظروف أزمة اقتصادية عالمية أغلقت أفق العمل والزواج أمام الشباب، وغاب فيها مشروع العدالة الاجتماعية وحمالوها اليساريون. فتقدم المال السعودي ومنظومته الفكرية وأوهمهم بأنهم سيغيرون العالم، هيأهم فكرياً وروحياً وجند منهم جيشاً عالمياً. هذه إذاً مساحة عمل فكري واسعة، تنتظر الكتاب والباحثين!

التنظيم تعبير عن الحاجات

ستواجه سورية بعد الحرب مشكلات كبرى اقتصادية ووجدانية وأخلاقية وصحية. لم نحص بعد الأرامل، والمغتصبات، والأيتام، والمشردين. ذكرت أوروبول أن عشرة آلاف طفل اختفوا في أوروبا بعد تسجيل دخولهم. وعبّر بريان دونالد رئيس الشرطة الأوروبية، عن خشيته من بنية إجرامية أوروبية مرتبطة بتنظيم هجرة السوريين إلى أوروبا، قد تكون استغلت أولئك الأطفال في تجارة الأعضاء البشرية والدعارة. في سورية ولبنان كُشفت عصابات تستغل الأطفال، وعصابات تنشر المخدرات، وعصابات تدير شبكات التسول. استولدت الحرب مشاكل اجتماعية، يفترض أن تشغل الكتاب السوريين.

يتصل بهذا واجب قومي على الاتحاد أن يحمله. هو دعم الانتفاضة الفلسطينية الشعبية التي ترد الآن على من سلم مفاتيح فلسطين للخليج وتركيا، ومن يتعاون مع العدو، ومن يغمس الفلسطينيين في المشاكل العربية. تضمنت أهداف الحرب على سورية، تهجير الفلسطينيين وتوطينهم. وقد هجر الآلاف منهم إلى ألمانيا وفرض عليهم التنازل عن حق العودة. لذلك تفرض الثوابت القومية التي جعلت سورية حضن القضية الفلسطينية، منع جميع أشكال التوطين. ومنها اندماج كتلة الكتاب الفلسطينيين في اتحاد الكتاب وغرقهم في المشاكل السورية والمنافسات الانتخابية. واجب اتحاد الكتاب أن يساعدهم على تأسيس منظمة كتاب مستقلة مكرسة لقضايا الوطن المحتل، تنشغل بحاجات الشعب الفلسطيني. يجب ألا تحجب عنا هذه الضرورة عواطفنا، أو الاسترخاء على ما تعودناه، أو مكاسب الاتحاد. يعاد النظر في أشكال التنظيم لتلبي مسائل الزمن، ويفترض أن تفحص هذه المسألة.

التراث الحضاري

كانت كلمة زميلنا الأستاذ الشاعر عصام خليل، وزير الثقافة، موجزة ومسددة. فقد كان عضواً في المكتب التنفيذي، ورئيس تحرير الأسبوع الأدبي، عرف بالملامسة نهج اتحاد الكتاب، وشارك في أيام المد والجزر، وواجه من أصبحوا «معارضين» خارجيين وكان يظلّهم عبد الحليم خدام. خلال ذلك تابع جهد اتحاد الكتاب لحماية الأبنية التاريخية والآثار الوطنية. ولابد أنه سمع رياض نعسان آغا يقول إنه لن ينتظر مئة سنة لترميم ميناء عمريت الفينيقي، وأجاز فوقه مشاريع سكنية وسياحية. شارك الأستاذ عصام خليل في أمسية أدبية في بيت عربي في سوق ساروجا، وفي محطة خربة غزالة التاريخية. لدى اتحاد الكتاب إذاً فرصة فضّية لمتابعة مساره السابق في الدفاع عن التراث الوطني. وقد شاهدنا جميعاً هول العدوان على الآثار السورية، والحقد الوهابي على عراقتها الحضارية. فأصبحت حماية التراث الوطني المعماري والتاريخي من ضرورات مواجهة الوهابية.

وبعد، هاجمنا العدو قبل الحرب على سورية بالاختراق الثقافي. روّج الجوائز على رواية الجنس، لاستبعاد الموضوعات الاجتماعية والوطنية من الأدب. صنع الفراغ الثقافي بالمسلسلات التلفزيونية التي تسوّق لحم الصبايا وقتال الحارات. جائزة علوية صبح، كاتبة الجنس، شاهد على هول الاختراق. في الوقت نفسه مولت السعودية المؤسسات التي تنشر الفكر الوهابي في العالم، من إفريقية إلى القفقاس والصين وآسية وأوروبا. يفترض هذا الخطر ألا نضيّع لحظة من الزمن، كي نتجاوز الفراغ الفكري والغنائية الإنشائية، ونواجه خطر الوهابية والاختراق الثقافي الصهيوني.

> يجب ألا نستخف أبداً بالمنظومات الفكرية!
> فالمشروع السياسي يسددها في التعمير أو التخريب

غسان الألشي.. قريحة تسبق الموقف ونكتة حاضرة أسكت الشيشكلي على مضض وانتقم لنفسه

| أنس تللو

لسانٌ سليط، وحجة نادرة... براعةٌ فائقة في صياغة أجوبة بليغة ظريفة تُفحم الآخرين، وتنتقم لصاحبها من كل ساخرَ، وتقطع الطريق أمام كل متطاول...

غسانُ الألشي رجل ذو شأن عجيب؛ يستحق سلوكَه التأمّل العميق، تنتابك لتصرفاته دهشةٌ وتعتريك لوعة... يملك قريحة نادرة تجعله يقدم النكتة الفورية لكل موقف، بل فقد تفيض قريحته أحياناً بما يسبق الموقف ويغلف الجلسة بإطار من الظرافة بديع... حياه الله ظرفاً ومرحاً ونكتة ظاهرة، فأكسبه ذلك حضوراً متألقاً جعل مجالس الظرفاء تتخاطفه، وسهرات الأنس تترقب حضوره...

وما غرابة شخصيته وندرة سلوكه تكمنان في ظرافته النادرة المتميزة فحسب، بل إن مرد ذلك إلى أنه قد نحا بظرافته نحواً آخر.

إذ قد لا يخطر في بال المرء أنه وكما أن الظرافة سلاح لطيف يمكن أن يلطف الجو ويعطّر النفوس ويضفي جو المرح، كذلك فإنها يمكن أن تكون سلاحاً فتاكاً يدفع على المشاحنة ويفضي إلى البغضاء.

كان غسان الألشي يعيش حياة مترفة غنية، فقد ورث عن أبيه أموالاً طائلة وأملاكاً عديدة، دفعته إلى العيش ببحبوحة واضحة، فقد كان يطيل السهر يومياً، ثم يتأخر في الاستيقاظ، شغله الشاغل هو ارتياد المقهى أو الدخول إلى مطعم فاخر، وكثيراً ما كان غسان يشبه الرجل المتزوج بذلك الذي كسرت يده، وتم ربطها بحبل إلى عنقه فإنه يستطيع تحريكها ؛ ولكن ضمن الحد الذي يسمح به هذا الحبل، أما الأعزب فإنه يتمتع بتحريك يده كيفما شاء وفي كل الاتجاهات، لذلك فقد آثر غسان الألشي (حسب رأيه) عدم الزواج ليبقى ينعم بطعم الحرية الدامغة التي أضفت على حياته سعادة غامرة... ولعل هذه السعادة الزائدة كانت سبباً في إذكاء نار الحسد ضده ؛ فكثرت حوله الكلمات الساخرة ما دفعه إلى استخدام ظرافته على نحو غريب غير مألوف؛ وهو أن يجعل منها سلاحاً فتاكاً للانتقام ينال به من خصمه بحدة تجعلُ هذا الخصمَ يفكر كثيراً قبل الدخول في جولةٍ أخرى من التهكم والسخرية... لذلك فإن الكثيرين من الناس كانوا يسعون إلى كسب ودّ غسان خشية من أن تصيبهم من لسانه لاذعةٌ على شكل طرفة تجعلُ الآخرين يسخرون منهم، أو جارحةٌ ظريفةٌ تنشر شيئاً من قصصهم المخفية أو تطيح بهم... كيف لا وغسان يملك لساناً يرفع الممدوح إلى أعلى عليين إذا شاء المادح، ويهبط بالمذموم إلى أسفل السافلين إذا تطاول المذموم... لساناً حارساً أميناً يدافع ويهاجم بشراسة بالغة قلما تشوبَها حنكةٌ أو تخالطَها دراية، لساناً أقرب إلى الجنون المتعقل جعل غسان يسير وسط الناس جليلاً مهاباً يخشاه الناظرون وتبتسم له دوماً الشخصيات السياسية المرموقة...

إذاً لم تكن ظرافة غسان تهدف فقط إلى الابتسام، فقد استخدمها غسان للانتقام.

في مجلس أديب الشيشكلي عام ١٩٥٣

من المعلوم أن تعليقات الألشي في ميدان الساسة والسياسة لاذعة وجارحة ولكنها في الوقت نفسه ظريفة، وكان غسان من أصحاب العقيد أديب الشيشكلي في الخمسينيات الأولى من القرن الماضي، فكان العقيد يدعوه إلى مجلسه في نادي الضباط القديم على طريق الصالحية كل ليلة، فتدور بينهما مسامرات ومحاورات لم تكن تخلو من بعض الهمز واللمز، وذات ليلة بعد أن طالت جلسة السمر والمرح، تناول الشيشكلي والد غسان، جميل الألشي الذي كان رئيساً للوزراء أيام الانتداب الفرنسي بكلمة نابية... فانزعج من ذلك غسان وتوجه بالكلام للعقيد الشيشكلي قائلاً:

– لماذا تشتم والدي يا سيدي؟ إن أبي لا يُشتم وقد كان رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً في عدة وزارات، ولم يكن بائع قنابيز.

كان والد الشيشكلي بائع قنابيز، (والقنابيز هي نمط من أنماط اللباس القديم وهو القمباز، وقد كان والد الشيشكلي تاجراً في سوق الحميدية) فسكت

الشيشكلي على مضض، وانسحب في نهاية السهرة من دون أن يعاتب غساناً على كلامه، ومن دون أن يظهر عليه غضب من تعريض غسان بوالده بائع القنابيز، لكنه أمر باعتقال غسان لمدة أربع وعشرين ساعة وإطلاق سراحه في اليوم التالي على باب النادي، وعندما وصل غسان إلى منزله في منطقة القيمرية تم اقتياده إلى السجن حسب التعليمات...

وفي اليوم التالي أمر الشيشكلي بإحضار غسان إلى نادي الضباط، وإخلاء سبيله عند مدخل النادي، وبسبب هذا الاعتقال المؤقت وصل الألشي متأخراً إلى موعد النادي، وكان العقيد الشيشكلي في انتظاره وقد عاتبه على تأخره قائلاً:

– لماذا تأخرت يا غسان؟ انشغل بالنا عليك.

فأجاب غسان:

– والله يا سيدي لقد فوجئت أمس بأمر جلل، اضطرني إلى أن أمضي طول النهار أتشاجر مع الناس ووزارة المعارف – التربية – لأنها تغش الجيل وتزور التاريخ، وذلك بأنها تقول للناس إن الخلفاء الراشدين أربعة فقط: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، وأنا أقول لهم هذا غير صحيح، لأن الخلفاء الراشدين خمسة.

وهنا قال الشيشكلي مدهوشاً: ومن الخامس... يا غسان؟

فأجاب غسان بمنتهى الجد: والد سيادتك حسن الشيشكلي.

فابتسم الشيشكلي وضج الحاضرون بالضحك العميق.

السؤال عن المرحوم أبيه

بعد غياب طويل اجتمع غسان الألشي بأحد أصدقائه، وسلم عليه بحرارة وسأله عن والده وأحواله وصحته فأجابه بأن والده قد مات فأبدى صديق غسان حزناً شديداً، وأخذ يعدد صفات المرحوم الوطنية والحسنة، وطيبة قلبه، وقد بالغ في ذلك الحزن العميق ما دفع بالألشي إلى أن يقوم هو بالتخفيف من آلام صديقه ومواساته، ومرت أيام... ورأى غسان صديقه ثانية، فعاد الصديق يسأله: كيف الوالد إن شاء الله بخير فأجابه غسان: والله لساتو ميت.

في جلسة سهر

كان الألشي في جلسة سهر، يتجاذب مع ندمائه أطراف الحديث، فقال أحد الحضور إن غسان كان طياراً حربياً أثناء حرب فلسطين، فطلب الحاضرون من غسان أن يحدثهم عن حرب فلسطين وما جرى معه فيها، وعلى الرغم من أن غسان لم يكن طياراً قط لكنه أخذ يتحدث، وينسج قصصا من خياله الواسع، فقد صار يروي لهم قصته ومخاطراته، ويطنب في وصف الغارات التي كان يشنها على العدو، وبعد أن سرد لهم عدة حوادث، وجد ما وجد نفسه إلا وهو ينهيها بأن طائرته وقعت مرة وقضي عليه، فقال أحدهم متعجباً: يا أستاذ غسان كيف تقول (إنك مت وهلأ أنت عايش وقاعد معنا عم تحكي القصة)؟ فأجابه غسان: أنا عايش...؟ ليش هي عيشة؟.

الفرقة الوطنية للموسيقا العربية في دار الأوبرا

| الوطن

تحيي الفرقة الوطنية للموسيقا العربية ضمن حفلاتها الدورية بقيادة المايسترو عدنان فتح الله أمسية عند الخامسة من مساء الإثنين على خشبة مسرح الأوبرا في دار الأسد للثقافة والفنون بدمشق.

وتقدم الفرقة العديد من الأعمال الموسيقية الآلية والغنائية منها سماعي كرد للمؤلف جوكسيل باكتاجير ولونغا جاز للمؤلف ألفريد جميل وهي من ضمن قوالب الموسيقا الشرقية الآلية ومن التجارب الإبداعية الجديدة في مجال التأليف الشرقي الأوركسترالي للمؤلفين السوريين الشباب ستعزف الفرقة عملاً موسيقياً للمؤلف محمد عثمان.

كما تقدم الفرقة خلال الحفل عملاً موسيقياً شرقياً معاصراً للمؤلف كنان أدناوي بعنوان «جو» إضافة إلى عمل من تأليف قائد الفرقة فتح الله بعنوان «أهكذا كانت» وسيشارك الفرقة في هذه الأمسية عازف التشيللو السوري محمد نامق في الحركة الثانية من الكونشيرتو رقم ٣ للمؤلف الأذربيجاني حاجي خان محمد إضافة لمشاركة من المغنية ليندا بيطار التي ستقدم أغنية «لا تنتقد» من كلمات سعاد الصباح وألحان الموسيقار كمال الطويل وأغنية «احكيلي عن بلدي» للسيدة فيروز للأخوين رحباني وعدداً من الأعمال الموسيقية الأخرى.